المخططات الإسرائيليّة في القدس

تُحكِم السيطرة على معالم المدينة نحو تهويد ممنهج

نادية حرحش

كاتبة مقدسيّة

خطة متكاملة وشموليّة لضمّ القدس والسيطرة على كافة معالم الحياة فيها وتكريسها نحو صورة تهويديّه تُكرَّس فيها يهوديّة المدينة وتهميش ما يمكن تهميشه من معالم غير يهوديّة الطابع، وإقصاء وتهجير ما يمكن تهجيره من سكان.

منذ أشهر ينشغل المقدسيّون بخطة وادي الجوز التي تستهدف المنطقة الصناعيّة وتسمى بوادي السيلكون من قِبل بلدية الاحتلال الإسرائيليّة، وذلك لتأخذ طابعًا تكنولوجياً. وتتطلّب الخطّة الهدم والاستيلاء على محلات تجارية وبيوت تقع ضمن المخطّط المقترح على المنطقة الصناعيّة بوادي الجوز. شكّلت المنطقة الصناعيّة عبر تاريخ المدينة عصبًا أساسيًا للحركة التجاريّة والصناعيّة في القدس. وقد يقول قائل ما الضرر برؤية ناطحات سحاب وعمارات جديدة وجميلة بدل المشهد الواقع من اكتظاظ للمحال وتنوّعها بلا تناغم؟!.

كذلك سوف يعتقد من يتأمل للحظة بأنّ هذا المشروع سيوفّر فرصًا كثيرة للأعمال التكنولوجيّة، أي أنّه كما تدّعي البلدية: سيستهدف قطاع الشباب ويوفّر لهم فرص عمل. لكنّ هذه الخطة التي ستوفر بالفعل أعدادًا كبيرة من فرص العمل، ستحرم بالمقابل أعدادًا هائلة من فرص السكن، في وقت تهدّد فيه إسرائيل بسحب هويات عشرات الآلاف

من السكان المتواجدين خلف الجدار في مناطق مثل كفر عقب ومخيم شعفاط وغيرها، وتبقى معضلة توفير فرص العمل أمام خطة ترحيل محكمة سهلة الدحض. أيضًا، وفي الوقت نفسه، يُهدّد بنقل أصحاب المحلات طوعًا أو قسرًا إلى المنطقة الصناعيّة الجديدة في مستعمرة عطروت، ممّا يعزز مخطط توسيع الوحدات الاستيطانيّة هناك من بيوت ومتاجر وفنادق، بل وحيث تحوّل حاجز قلنديا إلى معبر فعليٍّ في المحصلة.

لكنّ المشكلة ليست هنا فقط، إذ لا تقف عند مخطط يستهدف منطقة محددة في وادي الجوز ومنطقتها الصناعيّة، لأنّ أهل القدس استيقظوا صبيحة أحد الأيام ليروا لافتات معلّقة على زوايا معظم الشوارع الممتدة من الشيخ جراح إلى شارع السلطان سليمان عند محيط البلدة القديمة، وبات من الواضح والجليّ أنّ خطة وادي السيلكون لمنطقة وادي الجوز الصناعيّة ليست إلّا جزءًا مقتضبًا من مخطط أكبر، تُسمّيه بلدية الإحتلال بـ«مشروع مركز المدينة شرق»، حيث سنرى فيه ملاعب أكبر، وسكة حديد تعبُر داخل الأحياء لتربط محطّات مرور القطار الخفيف بمستوطنات القدس، ومن ضمنها المستعمرة التي أقيمت على قصر المفتي (فندق شيبرد) وكرم المفتي في منطقة الشيخ جراح.

هناك أيضًا توسيع كبير للحدائق العامّة و التوراتيّة والبيئيّة؛ ففي وادي الجوز غير البعيد عن مشروع وادي السيليكون، هناك مخطط لحديقة توراتيّة تمتد من الوادي وترتفع نحو جبل الزيتون وصولاً إلى القمة لتعانق ما تمّ الاستيلاء عليه سابقًا. وهناك مدرسة توراتيّة لم ينتبه لها الكثيرون منّا (بالقرب من المدرسة الإبراهيميّة)، وأراضي الزيتون على امتداد الجبل، وهي إمّا مصادرة أو يمنع أصحابها من استخدامها إلّا بالتنسيق مع المدرسة التوراتيّة لأنّها مدرسة توراتيّة بيئيّة).

كذلك في المنطقة الممتدة من وادي الجوز وصولًا إلى مستشفى المطلع (أوغستا فكتوريا)، أي أراضي العيساوية والطور: فقد صودر معظمها وخضعت لسنوات كثيرة أمام هيمنة سلطة الطبيعة والحدائق بعدما أعلنت عن وجود نبتة ما هناك؛ أمّا اليوم، وإذا ما نظرنا إلى هذه المنطقة من أسفل العيساويّة في طريق القدس معاليه أدوميم، فسوف نجد شارعًا ضخمًا جديدًا، يركبه جسر في طور الإنشاء فوق تلك الأراضي.

أمّا المنطقة الممتدة عمقًا من وادي الجوز إلى أعلاها حيث جبل الزيتون، فنجد فيها المدارس

التوراتيّة كما الحدائق التوراتيّة والبيئيّة المنتشرة، فضلًا عن شوارع جديدة ممتدة ما بين طرفي الطريق المؤدي إلى الطور من الصوانة، وبالتزامن أيضًا مع عمليات الإستيلاء المتكررة على البيوت سواء عبر التسريب أو بغير ذلك.

وكذلك على الجانب الآخر من الوادي (الحسبة) والإطفائيّة هناك حراك لسلطة الطبيعة والحدائق ومصادرة وأوامر لا تتوقف لهدم بيوت. مقابل هذا الوادي تقع مقبرة اليوسفيّة (الشهداء) تليها مقبرة باب الرحمة، وكلتاهما متاخمتان لسور القدس حيث يشكل باب الأسباط مركز كليهما؛ ومؤخرًا بدأت الجرافات الإسرائيليّة بالعمل على ما لم يفهمه أحد بعد، وهو جرفٌ للدرج الخاص بمدخل مقبرة اليوسفية. كما وتتدخّل سلطة الطبيعة والحدائق في المنطقة الموازية للشارع والمقابلة للوادي لتحدّ من انتشار القبور تحت حجتي حماية البيئة وإنشاء حديقة لتجميل المدينة وسط مقبرة باب الرحمة نفسه، والذي يحاول الإسرائيليّون السيطرة عليه من أجل خطة غير معلنة بالكامل بعد. وإذا ما أكملنا المشوار صعودًا إلى باب المغاربة، نرى حدائق مختلفة ما بين العامّة والمغلقة للسياحة «التوراتية» الممتدة حتى السور المتاخم للأقصى. وبعد قطع البوابة التي تُفصل ساحتها بحائط البراق وصولًا إلى تجمعات يهوديّة على مشارف المداخل، يستمر امتداد الحدائق نحو باب الخليل وقوفًا في مواجهة مبنى البلديّة، حيث يفصلها شارع ومحطة القطار الخفيف؛ ثم تنزل الحديقة مرورًا بباب الجديد متاخمة لسور القدس حتى باب العامود، وتستمر نحو مغارة سليمان في شارع سليمان ومرورًا بباب الساهرة، لتنتهي على مشارف مقبرة اليوسفيّة حيث الحفريات جاريّة في مدخلها المقابل.

هكذا نكون قد وصلنا إلى إغلاق محكم لدائرة السيطرة تحت مسميات «سلطة الطبيعة والحدائق وتطوير المدينة وتحسين البنى التحتيّة» بدءًا من وادي الجوز وانتهاءً به. وطبعاً، لا يحدث أيُّ أمر على حده، فبينما تقوم سلطة الطبيعة بمخططها، تدعمها الجهات الاستيطانيّة من جمعيات نشطة في كلّ منطقة على حده، بالإضافة إلى تسهيل البلدية لهذه الأعمال من / وفي كافة الاتجاهات.

ولعل مَن يعرف المنطقة يفهم كذلك أنّ مدخل وادي الجوز تتربع عليه وزارة الداخليّة الإسرائيليّة، ويعلوها كرم المفتي الذي يُقام على الجانب الآخر منه للشيخ جراح مستعمرة جديدة. وإذا ما سلكنا الطريق من المستعمرة المقامة على قصر المفتي وكرمِه نزولًا إلى

مركز المدينة من الشيخ جراح، الذي تقام عليه بؤر استعماريّة متعددة حول مغارة شمعون الصديق، فإنّ هذه المنطقة قد شــهدت، ولا تزال تشــهد، عمليات استيلاءً على البيوت الفلســطينيّة؛ ولعل معظمنا ســمع عن قضية بيت عائلة الكرد والغــاوي وغيرهما قَبل عدة ســنوات؛ واليوم هناك العشرات من البيوت التي تعاني من الإشكالية نفسها، حيث يتعرض أصحاب البيوت للتهجير القسري تباعًا في تلك المنطقة من الشيخ جراح.

وما لم تستطع الحدائق العامة، ســواء منها التوراتيّة أو الخضراء، كما الملاعب، فرضه على الأرض من عمليات اســتيلاء وتهويد ممنهج، أضيفت إليــه وتخللته بؤر إسرائيليّة الطابع تتمركــز في مناطق هامــة مثل وزارة الداخلية بســفح وادي الجوز؛ فهنــاك بالقرب من المســتعمرة المقامة على قصر المفتي وعلى تقاطع الطريق مركــز خدمات صحيّة حكوميّة (كوبات حوليم)؛ كذلك تتربع محطة الشرطة المركزيّة في أخر الشارع عند الطريق الرئيسيّ والمعروف سابقًا بخط بارليف، ولاحقًا بالشارع رقم واحد – بارليف؛ و تباعًا تمشي محطة الجيش العامة مع الطريق داخل الشــيخ جراح. ثم تتــدرج الطريق لتلتقي من الاتجاهين داخل الشــيخ جراح عند تقاطع الأمريكان كولوني، حيث مركز آخرٌ للخدمات الصحيّة الحكوميّة (كوبات حوليم) ومؤسســة التأمين الوطني بعمارتها الجديدة. أيضًا، وبموازاة الشارع الرئيسيّ، ثمة سلسلة من الفنادق الإسرائيليّة؛ ويلتقي خط القطار الخفيف الجديد بالخط السابق على طريق رقم واحد باتجاه المصرارة، وبهذا يكون قد جمع ما أراد تجميعه من هيمنة إسرائيليّة مطلقة، وفصل ما أراد فصله من تشــتيت للأحياء الفلسطينيّة في القدس بدءًا من بيت حنينا ووصولًا الى باب الجديد، حيث يأخذ القطار مجراه من هناك إلى المركز الغربي للمدينة نحو شارع يافا. هذا فضلًا عن الخط الجديد للقطار الخفيف، والذي سيمر من فوق بيت حنينا - طريق الجسر– إلى الشــيخ جراح وبداية وادي الجوز، ليلتف حول محيط الاحياء العربية من داخلها.

في الجهــة الأخرى، وإذا مــا توقفنا عند باب المغاربة، تتمركز الخطة عند مدخل ســلوان وعلى بعد خطوات من مدينة داوود التي تشــكّل حلم شارون بتهويد المدينة. حيث راهن أنّه كلّما استولى على أرض ومبانٍ أكثر، وكذلك مواقع، وأصبغها بصفة يهوديّة أو توراتيّة، كلّــما زاد عدد اليهود مقابل عدد العرب. لكنه، وعندمــا تيقن أنّه لا يمكن التخلص من السكان نهائيًا، عدل عن تركيزه على خطة الترحيل وقرّر زيادة التواجد اليهوديّ التوراتيّ

وتهميش العنصر العربيّ لدرجة تجعل من ينظر نحوه لا يرى إلّا صورة لعربيّ متخلف، ويُذكّر الناظر بتاريخ قديم يكرّس الرواية التوراتيّة بوجود أناس عابرين لا يشكلون من التاريخ إلّا أرقامه. فاليوم، وإذا ما كنت سائحًا عابرًا، أنت تقف عند مدينة داوود وتسمع كلّ ما تمّ تحريفه عن المكان والتاريخ، وتنظر أمامك لِما يُشكّله اكتظاظ سكانيّ لا ترى منه الناس، وإنّما ترى فقط توقّف حالة بشريّة عن التقدم أمام ما يقدمه لك الرائي الإسرائيليّ من الامتداد الحضاريّ الذي يوحّدك مع باقي البشر المتحضرين.

هناك في سلوان تحديدًا سيكون القطار الهوائيّ متمركزًا لإنزال وإصعاد ركّاب من غرب المدينة على امتداد وادي الربابة وأبو طور، ومطلة جبل المكبّر. وباتجاه شرق المدينة سيأخذ الراكب بجولة هوائيّة فوق شرق المدينة المتمثل بالبلدة القديمة وصولًا إلى جبل الزيتون، حيث الحدائق الممتدة على تخوم الجامعة العبريّة (أراضي الطور والعيساويّة والصوانة).

أيضًا، و تبعًا للمخططات غير المعلنة رسميًا للجمهور، يُفترض أن تكونَ إحدى ركائز القطار الهوائيّ على حواف مقبرة باب الرحمة، حيث تترصّد سلطة الطبيعة والحدائق لعدم توسيع المقبرة لمصلحة الحدائق العامة المزعم انشاؤها.

وعلى ما يبدو، إنّ ما ظنّه المسؤولون من الأوقاف الإسلامية إنجازًا في عدم السماح لهم باستخدام منطقة المقبرة، قد التفت حوله سلطات الإحتلال لتبدأ الحفر الذي لم يعرف أحدٌ حتى اللحظة ما هي تبعياته، سوى كونه حديقة عامة على تخوم السور.

و إذا ما تبيّن أنّ ما يجري القيام به على تخوم سور القدس من باب الأسباط، التفافًا نحو باب الساهرة بموازاة مقبرة اليوسفيّة، هو حديقة عامة أخرى، فسترتبط هذه الحديقة امتداد الحدائق التي ذكرتها سابقًا، والتي تصل إلى هذه النقطة - حيث سوق الجمعة القديم. بهذا تكون سلطات الإحتلال قد أغلقت دائرة آخرى ضمن دوائر التحكم بشكل المدينة وصبغتها الجديدة. ولكنّ الخطر لايقف هنا فقط ! لأنّه من الجهة الأخرى لباب الأسباط، أي عند مقبرة باب الرحمة، ووصولًا إلى باب الرحمة، ومع امتداد الحدائق من باب المغاربة وصولًا إلى أطراف المقبرة من جهة سلوان، أعتقد أنّ المخطط الأكبر هو باب الرحمة بذاته واستخدامه مستقبلًا كمدخل للزائرين اليهود. فإذا ما رجعنا إلى باب المغاربة وولجنا نحو الساحة المؤديّة إلى حائط البراق، ومن ثم إلى مداخل البلدة والأقصى، لا يمكنك ألّا ترى

وتسأل وتُصدم بالجسر الذي يتمّ استخدامه ومنذ مدة لدخول السياح إلى الأقصى. أيضًا، وإذا ما تنبهنا إلى ما أعلنه ترامب في أكثر من سياق عن نية تقسيم الأقصى ضمن خطته الجديدة ما بين اليهود والمسلمين، سيتضح لنا بأنّ تنفيذ المخطط قد بات وشيكًا، لاسيذما وأنّ كلًا من الزائر اليهودي و السائح يستطيع الدخول إلى الأقصى عن طريق هذا الجسر، والخروج من باب الرحمة، ولا حاجة لمروره بأيٍّ من الأبواب الأخرى التي يستخدمها المسلمون عند دخولهم إلى المسجد الأقصى (مؤقتًا). وبالتّالي، إنّ سيطرة إسرائيل على تخوم السور من باب المغاربة إلى بابي الرحمة و الأسباط اليوم، مع مرور الحديقة من اليوسفية: يغلق حلقة جديدة من الإحكام تنتهي بالزائر وصولًا إلى مغارة سليمان على مقربة من باب العامود.. و بطبيعة الحال لن يكون هناك الكثير من الإستثمار في تهيئة رواية توراتيّة جديدة غايتها تكريس فرض اليد على المكان.

هكذا يكون كلّ المحيط المتاخم لسور القدس، وبجميع اتجاهاته، عبارة عن تحكُّمٍ مباشر بفعل ما يُسمّى «الحدائق العامة «في مناطق مقتصرَة، و«حدائق توراتيّة» سنسمع عنها بهذا الوصف تباعًا.

أمّا في الدائرة الأخرى لهذا المحيط فتشكّل مخططات وادي الجوز والسيليكون والشيخ جراح امتدادًا لهذا التواجد؛ حيث إنّ سفح وادي الجوز عند الصوانة إلى أعلى جبل الزيتون ممتلئ بهذه الحدائق والمدارس الدينيّة والبؤر الإسرائيليّة التي تلتقي مع مقبرة اليهود (مقبرة جبل الزيتون) المقابلة لمقبرتي اليوسفية والرحمة، وتستمر في وادي كدرون حيث طنطور فرعون وبركة سلوام ومناطق تحت سيطرة سلطة الطبيعة والحدائق؛ ويستطيع المار عبر تلك المناطق رؤية أفواج اليهود الممتدة من شباب وصبيان وغيرهم يفلحون ويزرعون، وصولًا الى وادي الربابة وحتى جبل صهيون. هناك على ضفاف الوادي باتجاه أبو طور تستقبلك غابة السلام وغيرها من المعالم التي تبدو سياحيّة للوهلة الأولى وسرعان ما تفهم أنّها خطة إعادة تشكيل هويّة المدينة اليهوديّة فيها، وصولّا إلى مطلة جبل المكبر.

وبالعودة إلى خطط ترامب وتصريحاته والاتفاقيات العربيّة الإسرائيليّة الجديدة المسماة بالسلام الابراهيمي، يتوقف المتأمل للمشهد ويظن أنّه أمام معزوفة لاحتواء الديانات، فالأقصى في مكانه ومخلفات الفترة الأمويّة من قصور ومبانٍ لا تزال قائمة، وكذلك الفترة الأيّوبيّة والعثمانيّة. بالمقابل، ومن الجهة الآخرى، تتموضع الكنائس في مكانها وبمحافظة

جليّة من الجسمانيّة..من (كنيسة الأمم) إلى كنيسة مريم (صهيون) إلى القيامة.

ويبقى امتداد التواجد اليهودي بديهيًا بدءًا من مقبرة سمبوسكي وسط وادي الربابة وإلى طنطور فرعون الذي يعود، مع سلسلة من المقابر الحجرية، إلى القرون الثانية- السادسة قبل الميلاد؛ فضلًا عن ومسارات المياه والانفاق التي تعود بدورها إلى العهد الروماني، ومثلها مدينة داوود وحائط البراق، وقلعة داوود ومغارة سليمان.

طبعاً، لم نتكلم هنا عن تحت الأرض، أي عمّا يتمركز في أنفاق البلدة القديمة المتاخمة لحائطي البراق و الأقصى، وصولًا إلى طريق الآلام على بعد أمتار من باب الأسباط، حيث تُكرّس رواية توراتيّة يصنع فيها الإسرائيليون ما طاب لهم من التاريخ ويشكلونه. تنتهي الأنفاق من الجهة الأخرى عند اتصالها بمدخل البلدة القديمة وعلى تخوم حائط البراق، وكذلك من سلوان. وتلتقي بهذه الإنفاق مثيلُتها التي يتمّ حفرها عند مطلة جبل المكبر.

وبالخروج من تحت الأرض ونزولًا من السماء، يبقى امتداد ما يجري على الأرض ليتسع المحيط فيشمل كذلك خطة القطار السريع الذي يسعى لتمديد المسار من تل أبيب إلى القدس حتى حائط البراق، حيث ستقام «محطة ترامب».

ثمة ضغوطات سياسيّة من قِبل وزارة المواصلات ومؤسسات المستوطنين الذين يعتبرون القطار وسيلة أخرى للربط المباشر ما بين المواقع السياحية ومستعمراتهم في القدس الشرقيّة والجانب الغربيّ للمدينة. يشمل مسار القطار شريطًا يمرّ تحت منازل سكان وادي حلوة بموازاة السور الجنوبيّ للبلدة القديمة (حتى وإن لم يكن المخططان بمستوى ارتفاع البيوت السكنيّة، فمن الواضح أنّ فتحات التهوية والبنى التحتيّة التي ستقام فوق سطح الأرض، سوف تقام بملاصقة وعلى أراضي السكان الفلسطينيين).[1]

أيضًا، و فوق هذا المسار، توجد عشرات المنازل الفلسطينيّة، وسكانها هم أنفسهم الذين يُخطط مستقبلًا لبناء التلفريك ومروروه فوق منازلهم (سيترتب على إنشاء القطار الهوائيّ مصادرة 10222 متر مربع من الأراضي الخاصة، ومعظمها في سلوان. حيث ستستخدم

(1) https://emekshaveh.org/ar/old-city-train/

لجنة البنى التحتية الوطنية تعلن عن مسار القطار إلى الحائط الغربي

الأراضي المصادرة لبناء محطات ونصب أعمدة على المسار المقرر لقطار الهوائيّ).[1]

وتشـير معلومات نشرتها وزارة شؤون القدس إلى أنّه تمّ إقرار بناء 17700 وحدة إستيطانيّة إسـتعماريّة في القدس الشرقية عـام 2020، منها 3500 وحدة في مسـتعمرة إي 1، و3000 وحدة لمسـتعمرة جديدة باسم جفعات همتوس، و2000 وحدة لتوسيع مستعمرة هار حوما المُقامة على جبل أبوغنيم، و 9000 وحدة سـكنية أُقر إنشاؤها فوق أرض مطار قلنديا التي كانت مخصصة حسـب صفقة القرن لإقامة منطقة سياحيّة فلسطينيّة فيها. كذلك تم خلال العام نفسـه تسـليم أوامر إخلاء لـ 12 عائلة تضم 73 فردًا يسـكنون منطقة الشيخ جراح، وأخرى لإخلاء 8 عائلات من حي بطن الهوى في سـلوان كجزء من مخطط إخلاء 26 عائلة مكونة من 800 فرد ضمن الحي المنوي تقديمه لمنظمة إلعاد الإسـتيطانيّة المتطرفة، بحسـب معطيات صادرة عن منظمة عير عميم اليساريّة الإسرائيلية. كما لم تلغي المحكمة الإسرائيليّة في تشرين ثاني الماضي أوامر إخلاء منطقة الخان الأحمر من سكانها الفلسطينيين، وإنّما أمهلت الحكومة الإسرائيليّة أربعة أشهر لتنفيذ أمر ألإخلاء. وفي العام نفسه إقتحم الأقصى ما يزيد عن 18000 مسـتوطن حسـب إحصاءات مدير الأوقاف الشـيخ عزام الخطيب، واعتُقل 3500 مقدسي كما صرح السـيد ناصر قوس مدير نادي الأسـير في القـدس، وارتفع عدد المحلات التجاريّة المغلقـة من 350 إلى 750 غالبيتها داخل البلـدة القديمة من المدينة، كما وبوشر بشقّ نفق تحت حاجز قلنديا يربط مسـتعمرات شرق القدس مباشرة بإسرائيل. زد عـلى ذلك أزمة جائحـة كورونا التي خلَّفت حتى العشرين من شـهر كانون أوّل 2020 ما يقارب 15925 حالة إصابة منها 132 حالة وفاة في المدينة، حسـب إحصاءات وزارة شؤون القدس الفلسـطينيّة. وفي ما يلي تفاصيل ثلاثة مشـاريع تهويديّـة جارية في القدس، وهي: مخطط شاليم، ووادي الربابة، الأنفاق الجاري حفرها في المدينة.

مخطط «شاليم» واتفاقيّة «إبراهيم»:
خطة متكاملة بؤرتها القدس ومداها حلم إسرائيل الكبرى

إنّ هـذه الاتفاقيّة ما بين إسرائيل وأمريـكا والبحرين والإمـارات، والتي أطلق عليها الرئيس الأمريكي ترامب «اتفاقية إبراهيم»: تعتبر تجسـيدًا لِما سيبدو عليه مشهد القدس،

(1) https://emekshaveh.org/ar/property-confiscating-cable-car/
بيان صحفي لجمعية عمق متساو بأيلول 2020

وما اعتبره البعض دفنًا رسميًا للقضية الفلسطينية، وتستمر إسرائيل بالتقدم أكثر فأكثر بخططها المتعددة. لكن، ولو توقفنا للحظات أمام خطة وُضِعت قبل سنوات وتُرِكت لتتدحرج لوحدها، سنرى كيف يلتقي كلٌّ من طريقي التطبيع و إبراهيم لتنفيذ مخطط «شاليم»؛ وكأنّ المشهد الذي هزّ الكثيرين من أهل القدس والفلسطينيين بإضاءة سور القدس بأعلام البحرين والإمارات وإسرائيل، هو جزء يضفي على كلمة «شاليم» صفة المعنى المرغوب فيه للكلمة: «الكمال».

لنبدأ من الإسم: عند التفكير بمعنى «شاليم»، نعتقد للوهلة الأولى أنّه قد يكون اسم شخص، أو قد يكون اسم مكان، أو هو تفسرٌ لمعنى ما أو ايحاءٌ لشيء ما.. والحقيقة أنّه كلّ هذه الاحتمالات معًا؛ فالكلمة «شاليم» تعني «كاملة» أي الخطة الكاملة (من كمال الأوصاف)، وكذلك تعني «شاليم» اسم القدس التوراتي «سالم» إذا ما لعبنا في تحريك الحروف من مدٍّ أو سكون في بعضها، وتعني كذلك استكمالا ل(يرو) شاليم، أي أنّها هي خطة القدس التوراتيّة الكاملة.

لقد خرجت «خطة شاليم» إلى الحياة باحتفال تقيمه الحكومة الإسرائيليّة سنويًا لِما يسمى «بيوم القدس» في 28 أيار من سنة 2017 بمناسبة مرور 50 عامًا على السيطرة الإسرائيليّة على القدس الشرقيّة (إحتلال عام 1967).

كذلك تقيم الحكومة الإسرائيليّة، كل عام، احتفالية بـ «يوم (توحيد) القدس»[1]- وفي هذا اليوم تغلق القدس تمامًا عن المقدسيين، ويتمّ فرض إغلاق المحلات على أصحابها، ويُمنع على الفلسطينيين التواجد في تخوم البلدة القديمة تحديدًا، ليسمح باحتفال المستوطنين من كلّ مكان، -في أيار عام 2017، وداخل الأنفاق الموازية لحائط البراق والمتاخمة للمسجد الأقصى، عُقد الاجتماع الاحتفاليّ وشارك فيه نتانياهو مشددًا على أهميّة المكان والمناسبة-، لأنّه «في هذا الموقع: بنى الملك سليمان الهيكل الأول. أولئك الذين عادوا من المنفى البابليّ قاموا ببناء الهيكل الثاني على هذا الموقع، وبعد تدميره،

(1) يوم القدس، هو اليوم الذي تحتفل فيه دولة الاحتلال الإسرائيلّي باستكمال سيطرتها على مدينة القدس، واحتلال الجزء الشّرقي منها، وعلى وجه الخصوص البلدة القديمة، وذلك خلال حرب عام 1967.

اشتقّت أجيال من شعبنا إلى هذا المكان. مرت آلاف السنين وعاد شعب إسرائيل إلى أرضه وأقام دولته وبنى عاصمة موحدة.»

خلال الاجتماع، تمّ إعلان خطة «الكشف عن القدس القديمة»، والتي يطلق عليها «مخطط شاليم».[1]

---

(1) مخطط شاليم عبارة عن سلسلة من المواقع قيد التطوير حاليًا؛ تهدف إلى الربط معًا لتشكيل مدينة تاريخيّة واحدة فوق الأرض وتحتها. وتشمل المواقع التالية: قلعة نبع جيحون: تم التخطيط لأعمال التنمية السياحيّة لمنطقة نبع جيحون، بما في ذلك حفر الغرف المنحوتة في الصخر وضمن منطقة فوق الأرض؛ استكمال أعمال التنقيب في وادي كدرون ودمجها في المسار السياحي. المحافظة على الممر المحصن ودمجه في المسار. أمّا ميزانيّة الخطة فتبلغ مليوني شيكل مستمدة من الحكومة، ومليوني شيكل من مؤسسة إلعاد. الشارع المتدرج: منذ عام 2013، تقوم سلطة الآثار بأعمال حفريات تحت الأرض على طول الطريق من بركة شيلوح / سلوام إلى موقف جفعاتي، تحت منازل الفلسطينيين في شارع وادي حلوة، الشارع الرئيسيّ في حي سلوان. تكشف الحفريات عن مسار شارع متدرج من العصر الروماني يقود من بركة شيلوح / سلوام باتجاه الحرم القدسي. تمّ تقديم الشارع من قِبل مؤسسة إلعاد للجمهور باسم «طريق الحجاج». وفقًا لهذا التفسير، فقد خدم الحُجاج اليهود في طريقهم إلى الهيكل. لا يوجد دليل واضح لإثبات هذا الادعاء. وتتكون ميزانيتها من 22 مليون شيكل بتمويل حكوميّ، و 28 مليون شيكل من مؤسسة إلعاد. قناة الصرف: تمّ الكشف عن قناة تصريف تحت الشارع المتدرج. ليس من الواضح متى تمّ التنقيب في البداية، وعلى الرغم من ذلك يزعم علماء الآثار الذين ينقبون حاليًا في الموقع أنّه: خلال الثورة الكبرى ضد روما، اختبأ المتمردون الأخيرون في القناة للتهرب من رعب الرومان. في إطار مخطط شاليم، من المقرر فتح القناة بأكملها للجمهور؛ وتتكون ميزانيتها من مليوني شيكل بتمويل حكومي ومليوني شيكل إسرائيليّ جديد من مؤسسة إلعاد. الهيكل الحجري الكبير: تم إجراء الحفريات الأثريّة في موقع أسفل مركز الزوار ضمن مدينة داود. ووفقًا لإيلات مزار، عالم الآثار الذي حفر في الموقع، فإنّ الهيكل الحجري الكبير هو من بقايا قصر الملك داوود. ويجادل علماء آخرون في هذا الاستنتاج. سيتم الانتهاء من الحفريات المستقبليّة للهيكل في إطار مخطط شاليم، وسيتم فتح مناطق عرض إضافية للجمهور. وتتكون ميزانيتها من مليوني شيكل بتمويل حكومي وثلاثة ملايين شيكل من مؤسسة إلعاد. مجمع كيدم: وكما أشرنا، سيُبنى عند مدخل سلوان، على بعد حوالي 30 مترًا من أسوار البلدة القديمة، ويُقصد به أن يكون بمثابة نقطة الوصول إلى منتزه أسوار القدس الوطني. تمّ منح المشروع ميزانيّة ضمن خطة شاليم المخصصة لإكمال الحفريات الأثرية في الموقع والتخطيط لمتحف للأطفال. تمّ تخصيص أربعة ملايين شيكل من الميزانية بتمويل حكومي وستة ملايين شيكل من قِبل مؤسسة إلعاد. تأسيس الحائط الغربي أسفل قوس روبنسون: تقع المنطقة داخل حديقة مركز ديفيدسون الأثرية، والتي تديرها مؤسسة إيلاد. ضمن خطة شاليم، حصل المشروع على ميزانيّة لاستكمال الحفريات في الموقع، وجعلِها في متناول عامة الناس، ودمجها في مسار زوار مركز ديفيدسون. تتكون ميزانيتها من مليوني شيكل بتمويل حكومي

ووفقًا للقـــرار الذي تمّ تكليف وزير شـــؤون القدس والـــتراث -الاسرائيليّ-، بإعداد وتقديم خطة شاملة لتطوير الحوض المقدَّس- التاريخي[1]، وبإعداد مخطط شاليم وتقديمه إلى الحكومة للمصادقة عليه في «يوم القدس» من العام التالي، 9 أيار 2018. يشير القرار إلى تقويـــة وتعزيز حوض البلدة القديمة في القدس، وحيث بلغت الميزانية المخصصة للخطة 350 مليون شيكل. تشمل المنطقة المقرر تطويرها البلدة القديمة و«مدينة داود»، جنبًا إلى جنب مع جبل الزيتون، وغابة السلام، وممشى «أرمون هاناتسيف».

تتضمن أهداف الخطة: «الكشف المستمر عن المواقع الأثرية في القدس القديمة، والبحث فيها وتطويرها كجزء من مخطط وطني [...] من شأنه أن يُبرز ويعزّز دور القدس كعاصمة قديمة للملك داود وفي العصر الحديث.

كذلك تهدف الخطة إلى تصنيف القدس كموقع سياحيّ مركزيّ له أهميّة «وطنيّة» ودوليّة، فضلًا عن إقامة روابط ما بين البلدة القديمة والجزء الجنوبيّ للحوض التاريخيّ (حيث يقع

ومليوني شيكل مســـاهمة من مؤسســـة إلعاد. التعليم والتوثيق والبحث والنشر: بالإضافة إلى المشاريع المذكورة أعلاه، تستثمر الحكومة 13 مليون شـــيكل في إنشاء برامج وأنشطة تعليميّة للشباب والطلاب الذيـــن يزورون المواقع في الحـــوض التاريخي للقدس، ولتوثيق الحفريات في الموقع، ونشر المكتشـــفات وتطوير البحث في هذا المجال. الشـــارع المدرج، المعروف باســـم «طريق الحجـــاج»: محاكاة لمركز زوار مؤسســـة إلعاد المسمى مجمع كيدم، أمام أســـوار المدينة القديمة وجبل الهيكل / الحرم الشريف. ستربط الأنفاق تحت الأرض ما بين مدينة داوود ومركز ديفيدسون.

(1) الحوض المقـــدَّس- أو التاريخي- مصطلح إسرائيلّي حديث يشـــير إلى منطقـــة جغرافيّة في القدس تشـــمل البلدة القديمة والأراضي المجاورة لها. يستخدم المصطلح في مجال البحث الجغرافي وفي الجغرافيا المعاصرة - الدراســـات السياســـيّة المتخصصة في التخطيط العمراني مثل المخططـــات الهيكليّة المحلية للقدس ودراسات المستقبل السياسيّ للمدينة.

لم يتم تحديد مناطق منطقة الحوض المقدس بشـــكل واضح، ولم يتـــم الإتفاق على حدود المنطقة من قِبل جميع الجغرافيين المشاركين في دراسة القدس. نسخة محدودة ترى أنّ المدينة القديمة محاطة بأسوار القدس باعتبارها الحوض المقدّس. وهناك نسخة موسعة ترى جبلي الزيتون و صهيون ومدينة داود أيضًا كجزء من الحوض المقدّس..

الحوض المقدس، في الواقـــع - القدس، منطقة جغرافية مركزة لآلاف الســـنين من التاريخ ومئات من الأماكن المقدســـة - بعضها مشترك في اليهوديّة والمسيحيّة والإســـلام، وبعضها فريد لإحدى الديانات الثلاث..

حي سلوان) بالمرور عبر طبقات أثرية مختلفة، بغية التأكيد على المواقع التاريخيّة والتوراتيّة في المنطقة والحفاظ عليها، ولإثبات الطابع المتعدد الثقافات للقدس القديمة.

كما ويتضمن المخطط العمل-الاستيلاء- على حفريات أثرية ضخمة في البلدة القديمة وسلوان، وتطوير المواقع الأثريّة في ما يسمى «بالحوض التاريخي» للسياحة، والذي تقوده الحكومة الإسرائيليّة من خلال مكتب رئيس وزرائها، وبالتعاون مع هيئات مختلفة تتضمن منظمات يمينيّة مثل إلعاد وغيرها، تعمل وكأنّها أذرع لمكتب رئيس الوزراء. هذا النهج الإسرائيلي في القدس يتبعه كافة رؤساء الوزراء، فمشاريع تنمية البلدة القديمة كلّها تمر من خلال مكتب رئيس الحكومة الإسرائيليّة. وعلى مدار السنوات، تمّ توثيق التعاون ما بين سلطات الدولة والبلديات والمكاتب الحكومية مع المنظمات الاستيطانية، ممّا أدّى إلى زيادة عارمة في عدد المواقع الأثرية الخاضعة لسيطرة المستوطنين الساعين للتأكيد على الروابط الحصرية أو المركزية للشعب اليهوديّ في المنطقة، والأمثلة على هذا كثيرة، وعادة ما تعكس نفسها باتفاقات الحكومة الإسرائيليّة مع مؤسسة إلعاد الاستيطانيّة الشهيرة.

وعلى سبيل المثال: أُبرم اتفاق سنة 1997 ما بين مؤسسة إلعاد غلاإستيطانيّة وسلطة الطبيعة والحدائق الإسرائيليّة (وهي هيئة حكومية)، حصلت إلعاد بموجبه على حقوق إدارة حديقة مدينة داوود الأثرية في سلوان. لاحقًا، ومع السنوات، منحت الاتفاقيات إلعاد حقوق إدارة المواقع الأثرية في جميع أنحاء الحوض التاريخي؛ ولنا هنا أن نتخيل التهديد الحقيقيّ الذي تشكّله سيطرة إلعاد عندما نعرف بمعارضة الآثار الإسرائيليّة- في سنة 1998 تحديدًا- لعمليات إلعاد في المنطقة بشدة، ثم تغير موقفها لاحقًا لتصبح داعمة لمبادراتها، خصوصا وأنّ جزءًا كبيرًا من الموارد المالية التي خصصتها الحكومة لتنمية السياحة كانت تحت سيطرة إلعاد.

طبعاً، إنّ مخطط شاليم ليس الأول من نوعه، بل و يبدو عاديًا ضمن المخططات التي تمت المصادقة عليها والعمل بها في القدس على مدار السنوات؛ ففي سنة 2005، وبقرار حكومي(رقم 4090)، تمّ تخصيص 50 مليون شيكل سنوياً للفترة ما بين 2006 – 2013 لتطوير وإعادة تأهيل الحوض التاريخيّ؛ كما وقد نصّ القرار نفسه على أنّ وزارة السياحة ستخصص خلال هذه الفترة 10 ملايين شيكل للسياحة في البلدة القديمة.

تاليًا، وفي سنة 2012، كان قرارٌ آخر (4651) بتخصيص 50 مليون شيكل سنويًا للفترة ما بين 2013 – 2019، لتطوير مواقع السياحة العامة في القدس. وبهذا تكون الحكومة الإسرائيليّة قد خصصت وعلى مدار ما يقرب من 15 سنة الماضية أكثر من مليار شيكل لتطوير السياحة في الحوض التاريخيّ، وتحت التبرير الحكومي، لحاجة تعزيز مكانة القدس كعاصمة لدولة إسرائيل.

وهنا، لا يستطيع المرء إلّا أن يفكر: ما حاجة مخطط جديد لمنطقة محددة لديها اتفاقيات معمول بها وبميزانيات كبيرة جدًا؟ وكأنّما هذا المخطط هو «تكميل» يغلق الدوائر المشكِّلة للمظلة التي تعمل من خلالها وعلى شكلها الحكومة الإسرائيليّة في القدس، و لاسيّما بما رأيناه مؤخرًا، وبعد «اتفاقية إبراهيم»، من إضاءة لأعلام دول عربيّة طبّعت للتو مع إسرائيل.

في كلّ مرة ينظر المرء لِما تقوم به إسرائيل من خطط توسعيّة يتمدد فيها الاستيطان وتتوسع معها الشوارع وتزداد بها الأبنية والمرافق العامة: يصبح من الصعب أكثر فصل المشهد الحقيقيّ للواقع العنصريّ للمدينة لدى الناظر من خارج الحياة الفلسطينية.

وعلى مطلة جبل المكبر، التي يتوسط مشهدها الخلفي مركز الأمم المتحدة والذي يبدأ منه الخط الأخضر بتقسيم المدينة الى شرقية وغربية، تقف احتراماً للمشهد الجميل للمدينة أمامك: المسجد الأقصى وقبة الصخرة محتضنان بسور القدس، وتترامى أمامك واقترابًا من ناظريك أكثر وأكثر كلٌ من سلوان والثوري تباعًا. وإذا ما كنت فلسطينيًا، فإنت حتمًا تعرف أنّ الكثير من البيوت على وشك أن تُهدم، والكثير من هذه الأراضي الممتدة قد صودرت، والشوارع الحديثة تبدو منفتحة حتى تدخل إلى شارع في الحي ولا تخرج من مسافة مئة متر إلّا بعد نصف ساعة من الأزمة المستحيلة. والناصية النظيفة ليست سوى مشهدٍ مؤقتٍ حتى تدخل الحي وترى القمامة في كلّ الأرجاء بلا اهتمام. أمّا إذا كنت غير فلسطيني، فكأنّ المشهد معدٌ دائمًا للسائح الأجنبيّ، ولأمريكي الذي يحاول السمسار السياحيّ إقناعه بضرورة شراء بيت على المطلة وبين البيوت القائمة، ليتأكد أنّه ليس من إثبات أكثر على التعايش وتوحيد المدينة. المشهد المعدّ للسائح الأجنبيّ تطور مع تطور خطة شارون للمدينة منذ أن كان وزيرًا للإسكان، وصار صالحًا للتطبيق عندما أصبح رئيسًا للوزراء: ما لم يستطع فعله بتهويد المدينة من حيث زيادة عدد اليهود، حين كان

يزيد بعدد الأماكن اليهوديّة الطابع، ثبته كمكان واستخدم الطابع البشري الذي لم يستطع التخلص منه، وبما هو أقرب لإضفاء صورة تاريخيّة للمشـاهد: القدس اليهوديّة في مدينة داود الأثرية يحيطها سكان عرب يبدون وكأنّهم من مخلفات ذلك العصر.. والحقيقيّ اليوم هـو أنّ هذه المدينة «مدينة داود» التي بدأ منها ثبـات اليهود قائمة هنا؛ وذلك الجندي أو الموظف أو الدليل وغيره: هم من مخرجات الحياة المدنيّة التي تطوّر اليهود ليكونوا عليها، بينما بقي العرب مكانهم في الأسفل متخلفين عن الحضارة وعن التقدم..صار السائح يرى عبق المدينة بسحر التاريخ اليهوديّ القديم، ليضيف وجود الأغلبيّة العربيّة مجرد إضفاءةٍ لا حاجة للتركيز عليها في خلفيّة اللوحة «الكاملة».

ولكنّ شـارون لم يكن يتخيل بأنّ السـائح الذي يُعدّ له هذه اللوحـة ربّما يكون عربيًا في يوم مـا، فكانت خطته عادية: التخلص قدر الإمكان من أعداد العرب بأي طريقة وبكلّ الطـرق، وتهويد أكبر قدر ممكن من الأماكن. أمّا نتانياهو فقد رأى حلم إسرائيل الكبرى من خلال القدس الكبرى، وخطته الكاملة تربط التاريخ برواية «تاريخية» سـابقة يمكن اختراعهـا وتزييفها بكلّ ما أوتي من تكريس لفكرة الحوض المقدّس، وبرواية «اجتماعيّة» حديثة يكون فيها اليهوديّ «الأصيل» في هذا المكان، حاضنًا وشاملًا ومحتويًا للعربيّ اليوم، كما هو حافظٌ للمشهد التراثي الجامع للديانات: «ديانات إبراهيم الثلاث».

ميري ريغيف، وزيرة الثقافة الإسرائيليّة (السـابقة)، والتي اشتهرت بفضل فستانها ذي النقـوش بكلمات عربية –وقرآنية– خـلال زيارتها الثقافية لأبي ظبي، أشـارت في بيان عام صادر عـن وزارة الثقافة والرياضة بعد الموافقة على الخطة وأثناء التنزه ما بين المواقع الأثرية في الحوض التاريخي، إلى ما يلي: «بالقرب مـن (القديم)» المحلات التجاريّة، مع جميع العملات المعدنيّة والتحف لليهود الذين تجولوا هنا منذ 2000 و 3000 سـنة، نشعر أنّنا عدنا إلى المنزل. تؤدّي هذه الحفريات إلى إحياء الكتاب المقدس وتقوية أفضل كوشان (وثيقة العهد العثماني تشهد على حقوق الملكيّة) التي نمتلكها.»

وفي سياق متقارب أيضًا ادعى المدير العام لسلطة الآثار الإسرائيليّة، يسرائيل حسون، أنّ الخطة تهدف إلى زيادة عدد زوار المواقع الأثرية في القدس، وإقامة تواصل ما بين الأجزاء الجنوبيّة للمدينة القديمة وتلك الموجودة داخل أسوار المدينة القديمة من خلال الطبقات الأثريّة، والتأكيد عـلى المواقع التاريخيّة والتوراتيّة في المنطقـة، من أجل توضيح أهلها..

ارتباط إسرائيل ما بين الأجيال بالقدس.

بالنظر إلى هذه التصريحات، قد يعتبر المرء عن طريق الخطأ بأنّ مخطط شاليم مخططٌ متوانٌ يسعى في المقام الأول إلى الحفاظ على تراث المنطقة متعددة الثقافات، إلّا أنّ الفحص الدقيق للنصوص المتعلقة بالخطة يكشف عن الدوافع الأيديولوجيّة والسياسيّة الصارخة التي ترشدها.

ومن نفس المكان على المطلة: ينظر السائح العربي والغربي، مسلمًا كان أم مسيحيًا أم يهوديًا، هذه المرة ليفكر في ما يرى: الأقصى والصخرة أمام الناظر بلا تهديد وحفاظ واضح، وفي الخلف يمكن رؤية قبة الكنيسة الجسمانيّة بلمعان واهتمام، ومن أمام الأقصى خلف السور مباشرة يمكن أن ترى بتواضع مدينة داود الأثرية، ويرفرف العلم الإسرائيلي في مكان ما من إحدى التلال هناك ليكون الحافظ لأمنِ كلّ الديانات.

وعلى امتداد العين، وفي صحن الجبل، غابة وصالة أفراح ومشروع سياحة هوائيّة وتلفريك وتخييم ومطعم واستراحة.

الأجنبيّ قد لا يرى العربيّ الفلسطينيّ أمام عظمة المشهد ولا يكترث له. وكلّ ما يليه من هذا المشهد العظيم مجرد تفاصيل هامشية، و الأهم هو ما نراه تاريخًا عظيمًا يتمّ الحفاظ عليه بسلام على الرغم من كلّ «أعداء السلام».

أمّا العربيّ، السائح الجديد، والذي تربّى ونشأ وترعرع على كره اليهود الوحوش الذين احتلوا فلسطين، ووعي ولا يزال يشاهد ممارسات فظيعة يرويها الفلسطينيون يوميًا من خلال الشاشات، قمع وقتل وانتهاك للحق والأرض والإنسان الفلسطيني المسكين: فيرى أمامه في هذه اللحظة «افتراء» الفلسطينيين المتراكم منذ سبعين سنة، إذ إنّ ما تراه العين شيء آخر: حفاظ على الموروث الإسلاميّ وغيره، ثالث الحرمين أمام عينية ببهاء كالجوهرة في وسط المدينة، وأهل المدينة من فلسطينيين يعيشون براحة ما بين اليهود ولا فاصل ولا حاجز ولا جدار أمامهم، المساحات العامة والمرافق متاحة، وها هنا على المطلة نفسها الفلسطينيون والفلسطينيات، بإعمار مختلفة، نساء بحجاب ومع أطفال، رجال شبان ومسنون: يجلسون بلا ازعاج، يأكلون، يلعبون، يتسامرون، وإلى جانبهم يهود شبان وفتيات، مسنون ومسنات يتسامرون، يلعبون، يمشون.. فأين «الحرب والإنتهاك

والعنصريّة التي يدعيها الفلسطينيون ظلمًا وبهتانًا على الإسرائيليين الأبرياء»؟

من المتوقع أن تنتهي خطة شاليم في عام 2024، إلّا أنّ تحليل التغيرات في طبيعة الحوض التاريخيّ على مدى السنوات العديدة الماضية يشير إلى أنّ الخطة ليست سوى خطوة نحو إنشاء مدينة قديمة جديدة في القدس على حسب جمعية (عمق شبيه)(1). حيث نشهد أيضًا ارتفاعًا في تأثير المنظمات اليمينية، وأبرزها مؤسسة إلعاد، وسيطرتها المتزايدة على أجزاء من الحوض التاريخيّ في القدس. وكذلك على مدى العامين الماضيين، حيث عملت مؤسسة إلعاد على تطوير مواقع سياحية جديدة في وادي بن حنوم وما حوله. بعض هذه المبادرات تشمل افتتاح مقهى وبناء تلفريك ما بين المحطة الأولى في القدس الغربية ومجمع كيدم في القدس الشرقية، ومصادرة الأراضي الزراعية من الفلسطينيين في منطقة أبي طور، بأوامر «مناطق خضراء وطبيعة»، وغيرها من الإجراءات.

في الواقع، يشير تقييم المشاريع التي تشكّل مخطط شاليم، على حسب دراسات مختلفة ومن ضمنها جمعية «عمق شبيه»، إلى أنّه على الرغم من النوايا المعلنة في البداية، فإنّ هذه الخطة لن تحافظ على التراث الثقافيّ للحوض التاريخيّ لمدينة القدس؛ الحوض التاريخي للقدس بحيث يخفي جميع الروابط المادية والرمزية والعاطفية بين سلوان الفلسطينيّة والمدينة القديمة، ويسلّط الضوء فقط على المواقع المرتبطة بسرد الشعب اليهوديّ في القدس.

وبهذا نجد أنفسنا ضمن «مخطط متكامل» لتهويد التراث والتاريخ بطريقٍ بدأه هرتسل ويعبّده نتانياهو نحو نهاية لم يحلم بها أكثر الصهيونيين تطرّفا أو حلمًا... فحلم هرتسل يتحقق على «طريق الآباء بمسار- اتفاقية - إبراهيم».

عندما يلتقي الخط الأخضر مع المناطق الخضراء من أجل تهويد القدس: وادي الربابة

---

(1) عمق شبيه: عمق متساوٍ منظّمة إسرائيليّة ناشطة من أجل حقوق الثقافة والتراث، تهدف إلى الحفاظ على المواقع الأثريّة كممتلكات عامة تابعة لكلّ المجتمعات والشعوب. تناضل المنظّمة ضدّ استعمال مواقع التراث والآثار كأداة سياسيّة في النزاع ما بين إسرائيل والفلسطينيين، وتَعتبر علم الآثار وسيلة للجسر على الفجوات والتواصل ما بين الشعوب والثقافات. كما ونؤمن بأنّ المكتشفات الأثرية لا يجب، ولا يمكنها، أن تشكّل أداةً بيد أبناء شعب أو ديانة ما لإثبات ملكيتهم الحصريّة للمكان.
رابط الموقع لمزيد من التفاصيل عن مخطط شاليم والمخططات الإسرائيليّة المرتبطة بالآثار والتراث:
https://alt-arch.org/ar/about-us/

كلما توغلنا بمحاولة مسك الخيوط لفهم واقع الحياة في القدس، نكتشف أنّ الخطوط الحقيقيّة تتداخل بالوهميّة لتخلط الواقع على المدينة، فتُدخِل شرقها في غربها. مع استمرار الشراء أو الإستيلاء من قِبل الجمعيات الاستيطانيّة وعلى رأسها إلعاد التي تعمل بلا توقف في سلوان؛ ويصبح أحد البيوت القريبة من مقبرة يهوديّة تسمى سمبوسكي، أحد استخدامات إسرائيل لخلط الوضع أكثر. مقبرة سمبوسكي غير مهمة، وغير معروف من هم المدفونون بها، إلّا أنّها بدأت تشكّل اليوم وتدريجيًا أهميًّ أدخلتها خطة ترامب بشقّها المتعلق بالقدس عند الحديث عن سيطرة إسرائيل على الأماكن المقدسة الخاصة باليهود في محيط القدس القديمة. فيأتي هذا البيت بمستوطنيه الجدد ليشكّل إضافة لتغيير الخريطة وإدخال عنصر جديد لمشروع مدينة داود المتمركز في قلب سلوان على مدخل المدينة القديمة - بالقرب من باب المغاربة، وعلى مشارف المسجد الأقصى مباشرة، حيث يكثر العمل هناك تحت الأرض وفوقها على الهواء.

تحت الأرض لا يزال مشروع الأنفاق قائمًا تحت موقف السيارات –جفعاتي– ليمتد مباشرة إلى داخل البلدة القديمة من جانب، ويصل باتجاهات أخرى إلى أنفاق المياه والعوادم القديمة في أطراف المدينة المتفرقة، وقد يصبح جزءاً من أنفاق «طريق الحجّاج».

فوق الأرض كلُّ ما تشكّله مدينة داود من إعادة تشكيل للتاريخ اليهودي منذ الهيكلين المزعومين، الأول والثاني، وما يترتب على الأمر من خروج مرتقب لهيكل متجدد– سيكون بلا شك أقدم من كل الهياكل التي يتمّ التنقيب من أجل ايجادها– هو فعلٌ عبثيٌ. فمدينة داود تخرج يوميًا من مجرد مدينة قديمة تمركَز فيها حكم الملك داود، لتمتد إلى أطراف بلدة سلوان وتحيط ببيوتها ليصبح الحي الذي يزيد عدد سكانه على الخمسين ألف، مجرد «مشهد فنتازيا» للزائر الصهيونيّ أو الباحث عن عبق الزمن في هذا المكان، ويلج رويدًا رويدًا وسط مراكز الحي وأطرافه وصولًا إلى قمة التل التي تشرف عليها المقبرة (سمبوسكي).

يصبح المكان منبعثًا بروح اليهوديّة القديمة والحديثة معًا.. تلك الروح التي يتمّ خلق رواية لها، و يعيشها أصحابها الآن.

وما بين الأرض والسماء، سيكون مركز القطار الهوائيّ، الذي سيلغي تدريجيًا عبق التاريخ

من مشهد المدينة، ويمحو كلّ الخطوط بألوانها الخضراء المتدرجة بين خط حدودي أخضر وبين مناطق خضراء لوّنتها خرائط بلدية الإحتلال في مدينة القدس.

وهنا تبدأ قصة الإستيلاء على «الرواية» في وادي الربابة - أو وداي حنوم- أو وادي جهنم.

يفصل الوادي ما بـين جبلي صهيون و المكبر، حيث يحـدّد فعليًا الخط الأخضر (لحدود 1967) الفاصل ما بين حدود المدينة الشرقية والغربية.

لحدود الوادي واسـمه تفسيرات كثيرة تتيح مكانًا واسـعًا للاختلاق في القصة التوراتيّة من حيث الحدود. فهو ينحدر من باب الخليل الذي يشـكّل المدخل الغربي على أسـوار القـدس القديمة، ويمتدّ جنوبًا وشرقًا ليلتقي عند بئر أيّوب المواجه للمسـجد الأقصى. يمتد الوادي من مكان ما في منطقة مأمن الله (ماميلا) إلى بركة السـلطان، ويلتقي بوادي سلوان.

توراتيًـا، ورد ذكر الوادي في النصوص التوراتيّة باسـم جهنم، والـذي يُعتقد أنّه وادي الربابة، بينما يعتقد آخرون أنّه وادي كدرون، أي الوادي الرئيسيّ الآخر الواقع عند شرق المدينة بدءًا من وادي الجوز.

وهنا، ندخل في مخطط جديد جاري العمل عليه، وهو مخطط (وادي السـليكون) المزمع العمل عليه بدءًا من المنطقة الصناعيّة في منطقة وادي الجوز إلى منطقة باب الساهرة.

يتزامن هذا الأمر مع اتفاقات التطبيع الجديدة، والحديث عن مشـاريع مقترحة للأطراف ضمن تسمية «السلام الإبراهيمي»، ممّا يزيد الإرتباك والخلط في مخططات بلدية الإحتلال وحكومتها لتخرج أكثر من توقعاتهم في «خطة شاليم».

خطة ترامب المسماة «السلام من أجل الازدهار»، وفي ما يتعلق بالقدس تحت بند «تقديس المواقع الأثريّة، تأتي لتصب في استثمار المستوطنين وجهودهم على مدى العقدين الماضيين مع الحكومات الإسرائيليّة اليمينيّة المتعاقبة في إنشاء رواية «أرض الكتاب المقدس» ضمن منطقة ما يسـمى بالحوض التاريخيّ، حيث تناولت خطة ترامب الأهميّة الدينية للديانات التوحيديّة الثلاث.

(الابراهيمية كما يتمّ التسـويق لها بكثرة هذه الأيام)، وسـجّلت قائمة بالأماكن المقدّسة

التي تبيّن عند التأمّـل أنّ جزءًا كبيرًا من هذه المواقع ليس ذا طابع مقدس، ولكنّها مواقع أثريّـة أو تاريخيّة لا أهميّة دينيّة لها. والأماكن التي تمّ إدراجها كأماكن مقدسـة هي: عين جيحون (سـلوام)، مقبرة سامبوسـكي، جبل المشـارف، كنيس هورفا، قبر أبشالوم / طنطور فرعون، قبر زكريا، أنفاق طريق الحجـاج، قبور الأنبياء حجي وزكريا وملاخي وجبل الزيتون، جنبًا الى جنب نحو جبل الهيكل / الحرم الشريف – على حسـب التعبير في الاتفاقيّة- (المسجد الأقصى وقبة الصخرة)، حائط المبكى - على حسب تعبير الاتفاقية (حائط البراق)، ومواقع مسيحيّة تتراوح من كنيسة القديسة حنة إلى «بيت إبراهيم».i

نرى هنا كيف وضع مقترح ترامب مقبرة سامبوسـكي والمسجد الأقصى ودرب الآلام بنفس القيمة مـن الأهمية، ولم يدرج المقترح مقبرة مأمن الله (ماميلا) الإسـلاميّة– التي يتـمّ بناء متحف عليها–؛ كما و لم يذكر مقبرة باب الرحمة التي لا تبتعد عن المقبرة اليهوديّة المقابلة على سبيل المثال.

وعليه، تبقى أهميّة هذه القائمة (التي كانت إسرائيل قد أدرجتها سنة 2016) في خطورتها، حيث يتمّ الاعتراف بالأماكن اليهوديّة على أنّها مقدسـة لتبقيها تحت السـيادة اليهوديّة، وتعزز ارتباطهـا الدينيّ والتاريخيّ مع اليهود في المدينة، دون الاعتراف رسـميًا بالمواقع المسـيحيّة أو الإسلاميّة إلّا بجزئيّة ما تمّ ذكره من أماكن. إنّ ما تحاول إسرائيل فرضه من واقع جديد، هو خلق رواية توراتية تركّز على قيمة المكان لليهود، على الرغم من شـحّ ما تم إيجاده ورصده والتركيز عليه أصلاً، مقابل ثراء المكان بالمعالم الإسلاميّة والمسيحيّة التي تطغى على شـكل المدينة وروحها وناسـها؛ وما تقوم به إسرائيل من عملية سرد يهوديّ للمواقع التراثية يقلّل من أهميّة الروابط غير اليهوديّة بالمواقع، وتهميشها وتجاهلها.

لكـن، وفي كلّ الأحوال، إنّ ما نعتقده من بدء العمل للتوِ ليس إلّا امتدادًا لعملية تخطيط قديمة يتم تحديثها دومًا.

ففي عام 1974، تم إعلان وادي الربابة (حنوم) كجزء من حديقة أسوار القدس الوطنيّة؛ وهذا ما جعله منطقة خضراء وفق مخططات بلدية الإحتلال؛ وحيث أبقيت المنطقة شكلاً رعويًا تملأه المروج المزروعة، والممتلئة بالأشجار المثمرة في قسمه الشرقي. وهذا يعني أنّ كلّ خطة بناء تتطلب موافقة سلطة الطبيعة والحدائق الإسرائيلية.

وبعد العام 2000، بدأت سلطة الطبيعة والحدائق الإسرائيليّة بتطوير عدة مواقع هناك. وفي السنوات 2007 – 2008 بدأت جمعية إلعاد الإستيطانيّة بإجراء تنقيبات أثريّة على سفوح جبل صهيون بالقرب من مقبرة القديس بطرس الكاثوليكية في جاليكانتو، بحجة بناء متنزه بالتعاون مع سلطة الطبيعة والحدائق الإسرائيليّة. ولاحقًا، أي بعد (سنة 2011)، ساهمت سلطة الآثار الإسرائيليّة بأعمال ترميم واسعة للمبنى الصليبي للكنيسة، والمعروف باسم «بيت العظام». وفي سنة 2010، أطلق مشروع توثيق وترميم مقبرة سامبوسكي اليهوديّة الواقعة على المنحدرات من الجبل.

وعلى حسب «عمق متساوٍ» فقد ظلت هذه المشاريع معزولة ومرتبطة بالحفاظ على الآثار والمناظر الطبيعيّة حتى عام 2017، إلّا أنّ التدابير التي بدأت حينها لإنشاء جسر معلق، وقطار هوائي، ومقهى، ومركز معلومات، وتطوير المشهد الطبيعي على أراضي ذات طابع ملكية خاصة للسكان الفلسطينيين: قد كشفت النقاب عن نوايا مختلفة في السيطرة على الوادي وإعادة تشكيلة. وترصد «عمق متساوٍ» أنّ التطوير الذي بدأ في وادي الربابة يتبع النمط نفسه في المستوطنة بسلوان، حيث يتمّ تجنيد الآثار والتراث للسيطرة على الأرض.. إنّ تطوير الوادي هو جزء من محاولة تغيير طابع حوض المدينة القديمة.

على مرّ السنين، قامت هيئة تنمية القدس ومؤسسة إلعاد وسلطة الطبيعة والمتنزهات وغيرها من الهيئات الحكوميّة الإسرائيليّة، بتقديم مشاريع تنمية وحماية معزولة على جانبي الوادي.

وفي ما يلي المشاريع التي تمّ الشروع بالمصادقة عليها باتجاهات متعددة، وفقًا لتقارير وتعابير «عمق متساوٍ»:

– الجسر المعلق: في آذار 2016، طالبت هيئة تطوير القدس (جسمٌ حكوميّ تابع لبلدية الاحتلال) بتصريح لبناء جسر بحوالي 180 متر بطول 35 متر فوق وادي الربابة –حنوم–؛ وحيث يهدف الجسر إلى ربط قطعة أرض على الضفة الجنوبية للوادي تخضع حاليًا لسيطرة مؤسسة إلعاد، مع المنحدرات الجنوبية لجبل صهيون. اختارت لجنة التخطيط في بلدية الإحتلال دفع الجسر إلى الأمام عن طريق طلب تصريح، وبالتالي تجاوز الحاجة إلى الإعلان عن الخطة لطلب الاعتراضات والمناقشات العامة، على

الرغم من أنّ الهيكل الضخم يقع في قلب المســاحة المرئيّة للمدينة القديمة؛ وسيشكل بناء الجسر تغييرًا ملحوظًا في المناظر الطبيعية لوادي الربابة. كما وســيتم تعليق الجسر من موقع بجوار المقهى المعروف باســم «البيت في الوادي»، والذي تديره جمعية إلعاد الاستيطانية منذ افتتاحه، في صيف عام 2019؛ وذلك بالقرب من منازل الفلسطينيين في حي الثوري، ضمن المنطقة التي تسمى أيَضًا بـ«غابة السلام».

- القطار الهوائي (التلفريك):

التلفريــك هو مشروع وطني تــمّ تحديده خلال اجتماع حكوميّ في «يــوم القدس» بأيار 2017. وفي حزيران 2019، وافقت اللجنــة الوطنية للبنية التحتية على نقل التلفريك إلى البلدة القديمة. يعدّ المشروع جزءًا من اســتراتيجيّة إعــادة توجيه حركة المرور إلى المنطقة التاريخيّة، ومضاعفة أعداد زوار المواقع الأثرية التي يســيطر عليها المســتوطنون. يهدف التلفريك كذلك إلى نقل آلاف الأشــخاص يوميًا من حي البقعــة في القدس الغربية إلى ســطح مركز كيدم في سلوان/ مدينة داود، وهو مركز ســياحيّ مخطط تُروج له مؤسسة إلعاد الاستيطانيّة.

ســيعبر التلفريك وادي الربابة (حنــوم) الواقع جنوب البلدة القديمــة مع توقف عند جبل صهيون، ثم يعبر فوق ســلوان وينتهي عند مجمع كيــدم. من هناك يتمّ توجيه زوار المجمع إلى البلدة القديمة عبر مدينة داود التي تسيطر عليها إلعاد، وإلى مركز ديفيدسون؛ وستســتلزم المرحلة الثانية من المشروع (التي لم تتمّ الموافقة عليها بعد) التوقف على جبل الزيتون، وتوقف آخر في بركة سلوام في الطرف الجنوبي من طريق وادي حلوة في سلوان.. وفي أيار 2018، خصصت الحكومة 200 مليون شيكل للمرحلة الأولى من المشروع.

- أوامر البستنة: أصدرت بلديّة الإحتلال سنة 2018 - 2019، أمرين ببستنة 27 قطعة أرض (على مساحة حوالي 60 دونم) في وادي الربابة (حنوم) تعود ملكيتها لمواطني سلوان وأبو طور، بحجة أنّ هذه الأراضي غير مستغلة، وعليه يمكن أن تستخدمها البلدية للأغراض العامة. الأمر الذي يترتب عليه البدء بإنشــاء ما يسمى بالشرائط الجيوتقنيّة (مثل الجسر المعلق) ومســارات مشى لمسافات طويلة واستراحات (مقهى على الوادي- يقع على خط التماس ما بين أبي طور ومدرســة البنين في الحي). وفي المحصلة: يُحرَم أصحاب الأراضي

والسكان من المنفعة، بينما يتم اســتخدام المنطقة لتعزيز السيطرة الإسرائيليّة على الوادي بحجة تطوير السّياحة التي تعود منفعتها على المؤسسات الإستيطانيّة.

– موقع «غابة الســلام»: تمتد الغابة على مساحة 400 دونم. شكّل جزء كبير من مساحتها منطقة منزوعة السلاح ما بين إسرائيل والأردن، خلال السنوات 1948 – 1967، وحيث يقع الجزء المتبقي من هــذه المنطقة في القدس الشرقية. لقد تمّ زرع «غابة الســلام» عام 1968 من قِبل الصندوق القومي اليهودي على المنحدر ما بين ممشى (هاس شروفر) وحي جبل المكبر وأبي طور.

أمّا الأهميّة التاريخية للمكان فتكمن بوجود كهوف ومدافن تعود إلى الفترة الرومانيّة (تمّ اكتشــاف نقوش آرامية وزخارف هندسية في بعضها)، بالإضافة إلى بقايا قناة المياه، (قناة الحشمونيين) التي كانت تنقل المياه من منطقة بيت لحم إلى القدس.

في منطقة الممشــى– وبالقرب من مجمع الأمم المتحدة– مدخل القناة التي يصل طولها الى 400 متر مفتوحة للجمهور، وينتهي في أراضي قرية جبل المكبر.

تاريخ القنــاة مثار جدل لدى المؤرخــين، حيث يرجح البعض أنّ بناءهــا يعود إلى فترة الحشــمونيين (القرن الثاني قبل الميلاد)، بينما يرجحه آخرون في الفترة الرومانيّة اللاحقة. بالتّالي، وفي كلّ الأحوال، استمر استخدام القناة حتى العصر العثماني.

يتخلل الغابة مشروع خط الانزلاق الأكبر في الشرق الأوســط، والذي سيمتد على طول 800 متر تقريبًا. يواجه تنفيذ المشروع اعتراضات ما بين الصناديق اليهوديّة والاستيطانيّة المختلفة وبلدية الإحتلال.

تدعم بلدية الإحتلال ووزارة السياحة وسلطة أراضي إسرائيل خطة إلعاد لتطوير الغابة. وتحت ستار التنمية الســياحيّة وتشغيل مواقع الترفيه في الغابة، تُمكّن السلطات إلعاد من بدء وتنفيذ مشاريع من شأنها تغيير المناظر الطبيعيّة في ممشى هاس شيروفر. سيتم استبدال المنظر الأخضر المزروع في عام 1968 تدريجيًا بمناطق الجذب الســياحي. سيتم تقديم كلّ خطة منذ البداية على أنّها خطة تفيد الزوار، في حين تشير التغييرات المتوقعة إلى أنّ الحكومة الإسرائيليّة وإلعاد قد حدّدوا لأنفســهم هدف تعزيز السيطرة الإسرائيليّة على المساحات المفتوحة ما بين أحياء جبل المكبر وأبي طور.

إنّ الجمع بين زيارة القناة التي تشمل المشي عبر نفق تحت الأرض، وبين خط الانزلاق المخطط فوق غابة السلام، يذكرنا بممارسات المستوطنين في سلوان: الأنفاق أسفل المنازل والارتفاع بالتلفريك فوق المدينة القديمة، حيث يتمّ تجنيد السماء وتحت الأرض لخدمة هدف التغيير السياسي..

أنفاق القدس

كنوز التاريخ أم فرض سيطرة لصناعة تاريخ

منذ الكشف عن الحفريات تحت البلدة القديمة في القدس، أوائل الثمانينيات (1981)، والتي كانت تجري بطريقة سرية للغاية، بدأت الحرب الدائرة تأخذ موقعًا تدحرج إلى القاع بحثًا عن تاريخ يثبت قِدمًا ويهدّد كيان.

يشتمل مشروع الحفريات الدائر على خمسة مشاريع وهي: 1- أنفاق الحائط الغربي (البراق) والتي تنطلق من الحائط الغربي (البراق) بمحاذاة الشمال، ومن تحت بيوت الحي الإسلامي (طريق الواد) إلى بداية طريق الآلام (فوق المدرسة العمرية). 2- أنفاق هيرود بدءًا من سلوان وانتهاءً بالبلدة القديمة(هذه الأنفاق عبارة عن قنوات للصرف الصحي كانت تمرّ تحت المدينة خلال عصر هير وديس). 3- نفق ينتهي عند مغارة سليمان على مشارف سور القدس، ويمرّ تحت الحي الإسلاميّ كذلك. 4- نفق يبدأ من الحي الإسلاميّ ويتجه شرقًا نحو الحائط الغربي (حائط البراق). 5- نفق آخر في سلوان تحت ما يسمى بـ«حديقة داوود».

الملفت في هذه الحفريات أنّ معظمها يجري تحت رعاية وإشراف جمعيات يمينيّة استيطانيّة متطرفة (إلعاد، عتيريت كوهنيم)، وجمعية تابعة لمكتب رئيس الوزراء الإسرائيليّ بشكل مباشر (مؤسسة تراث الحائط الغربي)، وسلطة الآثار التابعة لبلدية الإحتلال بالقدس.

لقد صاحبت الأساطير الدينيّة الحفريات منذ القرن الماضي، وكان أهم اكتشاف لنفق في تاريخ المدينة قد تمّ على يد عالم الآثار البريطاني تشارلز وارين في الستينات من القرن التاسع عشر، حين اضطر لإخفاء الحفريات المتاخمة للمسجد الأقصى خوفًا من الحكومة العثمانيّة.

واستمرت الحفريات سرًا خلال السنوات الماضية، بالرغم من الشكاوى الرسميّة المُقدَّمة

من قِبل الأوقاف الإسلامية وأصحاب البيوت التي كانت الأشباح تتسابق ليلًا على نبش ترابها. وبعد مرور ما يقرب من عقدين أعلن نتانياهو (كان رئيسا للوزراء في حينها كذلك) افتتاح أنفاق الحائط الغربي المحاذي للمسجد الأقصى الذي يمرُّ بالأساس في معظمه من تحت حارات الوادي (الحي الإسلاميّ) المأهولة بالسكان المسلمين.

كان ذاك الإفتتاح شعلة اندلاع الإنتفاضة الثانية، التي توقفت خلالها عملية السلام الوليدة، أو ما يُسمّى بـ«عملية السلام». وانتهت الإنتفاضة بحصار الرئيس الفلسطينيّ ياسر عرفات واستشهاده، وبافتتاح النفق بعد إغلاقه مؤقتًا، ليصبح حتى هذا اليوم من أهم المعالم السياحيّة الموجودة في المدينة.

لن تستطيعَ التفكير بأخذ جولة داخل الأنفاق، قبل أنْ تدور ضمن جولات متداخلة كالأحجية التي تزداد تعقيدًا كلّما اقتربت بذهنِك من الوصول لحلّ لها.. ولا بدّ من أن تقف مشدودًا، إن كنت متفرّجًا فقط، إلى الصراع الدائر ما بين الفلسطينيين والإسرائيليين، كلّ يشدّك إلى طرفه ليقنعك بصدق قضيّته وروايته.

فالرواية التوراتيّة تخبّئ تحت الأقصى التابوت الذي يحمل سرّ أمناء الهيكل منذ موسى.

والأقصى يحمل قصّة إسراء نبي المسلمين الذي عرج منه للقاء الأنبياء جميعًا في السماء.

وإن كنتَ جزءًا من هذا الصراع، مثلي، فإنّك لن تستطيع إلّا التوغل دون الحاجة إلى أيّ عمليّة شدّ من أي اتجاه حول ونحو مكنونات الأمور. لن تحتاج لرواية تثبّت قصتك أو تصنع لك تاريخًا، ولن تحتاج لتبرير ما تفعل وما لا تفعل..فأنت ابن المكان وجزء من صناعة هذا التاريخ. فما يشدّك هو تاريخ أنت محوره وصانعه حتى أصبحت جزءًا من هذا المكنون الكبير، الذي من الصعب إدراكه...فقط تستطيع أن تعيشه وتندمج في ماهيته السحرية...

هذه هي القدس...

على أرضها التي تمشي فوقها أو تلك التي تحتها، أم الفضاء الذي عرج إليه الأنبياء.. تأخذك عنوةً إلى مكان لا تستطيع فيه لمس الشعور ولا إدراك أيٍّ من المحسوس.. فقط تصبح جزءًا من هذا السحر السرمديّ الذي لا يزول.

كنت ولا زلت أشـــكّك في نوايا الإحتلال بما يضمرونه وما يعلنونه لنا كشعب. والقدس معركة مختلفة، تتضاعف وتتوالى وتتشابك بأساليبها، والاختلاف على موضوع الحفريات كذلك. فللاعتراض وجوه سياســيّة واجتماعيّة حقيقيّة تعزّز من فرض إسرائيل سيطرتها وتفرّدها في صناعة الواقع، وفرض زمام قوّتها كيفما تشاء. وفيهِ تهديد حقيقيّ على السكان الذين يعانون أصلا من تهميش اقتصاديّ واجتماعيّ في أماكن تخلو من الخدمات الحقيقيّة والعادلة.

ومن ناحية أخرى، إنّ ما تكشفه الأنفاق يشكّل اكتشافًا مهما لتاريخ المدينة والذي لا يجب إخفاؤه. كما أنّ ما يجري من حفريات، على الرغم من خطورته وهدمه للكثير من التاريخ الذي لا يعلمه بهذه الحالة إلّا من يحفر، وهو المحتل: يحدث في محيط الأقصى وليس تحته.. وأساساته محمية بجدار حول المنطقة، ولم تؤثر به الزلازل السابقة.

أذكر تفاعلي وغضبي الشــديد قبل بضعة أعوام عندما كنت أمشي في طريق الوادي بدءًا من طريق الآلام ووجدت أنّ الحجارة الرومانيّة الضخمة قد أزيلت واســتبدِلت ببلاط مستحدث.. رحت مسرعة نحو أســتاذي الذي كان يمشي ورائي مع مجموعة الطلاب، لأشــكو له هول المصاب، وكيف أنّ هذا الاحتلال اللعين لا يكتفي فقط بسرقة الأرض واحتلالها بل ويزيف أيضًا التاريخ. لا بدّ وأنّهم قد سرقوا تلك الحجارة الرومانيّة لوضعها في مكان سيختلقون من خلاله رواية كاذبة جديدة. نظر لي أستاذي نظرته الساخرة الطيبة والدائمة، قائلا: «رويدك، لا تزعلي نفسك كثيرًا، فتلك الحجارة التي تحبين لم تكن وليدة ذلــك المكان أيضًا، فلقد تمّ تجميعها في الثمانينات كغيرها وُوضعت فقط لســدّ الفراغ لا أكثر.»

و للحظـــة انهارت أحلامي بذلك التاريخ. ففي كلّ مرة أمشي من تلك الطريق: أقف عند هذه الحجارة واسترجع عبق تاريخ لا أعيه...

حينها كنت في بداية برامج الدراسات المقدسيّة، وكانت المحاضرات مع أستاذي صاحب النظرة الهازئة والطيبة تذكرني دائمًا بجهلي. كنت أدخل إلى محاضره «القدس عبر التاريخ» جاهلة وأخرج في كلّ مرة، وبكلّ فخر، أكثر جهلًا. كنت أظن أنّ وعاء المعرفة الذي أحمله تجاه القدس ممتلئ، ثم أتفاجأ دائمًا بنقص ما يحويه وعائي.

في يوم، وقبل سنوات، طلب منّا أستاذنا زيارة النفق. اعترضت في البداية بشدة متسائلة كيف نذهب إلى مكان هبّت بسببه انتفاضة كلفتنا عشرات الشهداء ومئات الجرحى والأسرى وآلاف المنكوبين. وليس هذا فقط، فها هي الأنفاق قد وجدت لهدم الاقصى وإيجاد الهيكل المزعوم..

هدم الأقصى والهيكل المزعوم......

رحلات جديدة مع دراسة تاريخ المكان في محاولة لغضّ الطرف عمّا يكبّلنا من خناق، يُجبرنا فقط على لفظ الأنفاس من أجل البقاء.

عندما تبدأ جولة النفق يأخذك، كما فوقه، كلّ إلى روايته. هذه المرة إلى رواية من كان هناك حتى قبل التاريخ. تبدأ الجولة بمعلومات عامة عن المكان، يقول لك فيها الدليل الإسرائيليّ في لحظة ما، وقبل بدء الجولة، بأنّ ما يجلس عليه الأقصى اليوم هو ما كان تحته الهيكل الثاني؛ فإن كنت مسلمًا: لابد أن يقشعر بدنك حينما ترى يدَ الدليل أمامك يزيل مجسّم الأقصى ليضع الهيكل مكانه.

ويقول لك الدليل الفلسطينيّ، همساً: الرواية الإسرائيليّة تقول بأنّ هناك الهيكل المزعوم.

تشبه هذه الغرفة غرف غسل الدماغ إذا ما كان لغسل الدماغ غرف. فقبل أن تبدأ جولتك الاستكشافية والتي لا تحتاج للدليل، أنت ترى بعينيك ما كتبه التاريخ من تخليد يفوق قدرة الإنسان على التدوين والتأريخ والتزييف.

قد يكتب كلٌّ ما يريد، قد يتشاجر العالم من فوق ومن تحت كيفما استطاع..إلّا أنّ حقيقة المكان تغلب على أيّ واقع يريد أيّ أحد أن يثبته.

أدرك جيّدًا نوايا الاحتلال البغيضة من تلك الحفريات.. فما نشهده من حفريات فوق الأرض يشهد بذاته على بغض النوايا وظلمها للبشر كما للحجر.

فهمْ، وبحفرهم تحت الأرض، يبغون هزّك ودكّ وجودك من فوق الأرض.

يستثنون من حفرياتهم وينكرون ويخبّئون ويشوّهون ويعيدون طمس ما لا يناسبهم من موجودات.

يبسطون سيطرتهم تحت الأرض كما فوق الأرض.

يحاولون تغيير التاريخ وتشويهه.

إلّا أنّ الحجارة لا تكذب. وما كشفته الحفريات لا يستطيع طمسه استرجاع تاريخ مقتطع لمرحلة بعينها.

وإنّ هناك تاريخًا لا يمكن طمسه مهما طال الزمان حتى ولو تم تدميره مؤقتاً.

فهناك شهادات حُفرت لتبقى.

فالطبيعة بجبروتها لم تستطع محو ما صنعه التاريخ في هذه المدينة المقدسة.

تأخذك القدس تحت أرضها، كما فوقها، لطبقات من «الأقداس» التي تشعر بها وكأنّك تعبر في رحلة داخل التاريخ رغم أنف كلّ من يحاول كتابة تاريخ يُغيّر فيه/ وبه التاريخ.

تنزل أو تصعد في لحظات، ويصبح النزول في طبقات المدينة صعوداً مقدّسًا كاسم المدينة. تشعر بالتاريخ يعبر من خلالك وأنت في كل زاوية وممر وحجر وصخرة أو عامود. تشم فيه رائحة الزمن الماضي الباقي بما كان رغم تغيّر الوجوه.

من قدس إسلامية تبدأ من عثمانية، وتنزل بك إلى مملوكيّة وعباسيّة وأمويّة وراشديّة عمريّة إلى قدس بيزنطيّة ورومانيّة هيروديّة وهيلاينيّة.

وبينما لا يزال الدليل يأخذك في «مسح» إلى روايته.. تستمر المدينة بأخذك في جولة عبر تاريخ لعصور لا تزال تتفتح أمامك نزولاً داخل أنفاق تستشعر في ملامستها ما كان زلزالا مرّة.. ما كان قناة لمياه المدينة أو قنوات لصرف صحي.. ما كان خندقًا وما كان مخزنًا للخمور في زمن وللزيوت في زمن آخر.. ما كان ممرًا لقاعة تأخذك إلى رواق قصر، وما يأخذك إلى اسطبل خيول.

حتى الحجارة بألوانها وأحجامها وبروزها تدخلك في دروس تاريخ لم تكن لتعرف عنه إلّا ما تراه عيناك.

تستمر بالمشي قدما..ولا تعرف ما الذي يأخذك ومَن الذي يقودك، هل هو الدليل أم الجاذبيّة الخارقة المحيطة بالمكان؟، إلى أن تجد نفسك فجأة وبعد ساعات تبدو، وفي لحظة واحدة، بحجم لحظة وبحجم زمان لا يقاس واقفًا أمام بداية مايُعرف بطريق الآلام تحت فضاء يحمله بلاط الشارع المصاحب لسليمان القانوني... هو زمن يبدو حديثًا مقابل ذلك

الزمن الذي خرجت للتو منه.

تخرج لتفكر صارخًا لا متأملاً، مدرِكًا ولأول مرة...

بأنّ القدس ليسـت مجرد مدينة يَقتتل للسيطرة عليها مدّعٍ تراكض عليه التاريخ منذ نشأة الأنبياء فيحاول اليوم إدراكه. وبين وارث لتاريخ عُمْرٍ ومدركٍ لمكنونات هذه المدينة التي وازت بقدسيّتها أقدس مقدّساته وحُرُماته،

بأنّ القدس ليست مجرّد مدينة بُنيت فوقها مدينة...

وليست حضارة بُنيت من خلالها حضارات..

ولكنّ القدس تاريخ.. من خلالها مرّت حضارات وشـعوب وأمم.. احتضنتهم بالرغم من نزاعاتهم وأبقتهم.. بل وخلّدتهـم بالرغم من المذابح التي اقترفوها.. وصَنعت منهم وبهم تاريخ مدينة بطريقة سـحريّة يصعب فهمها، تاريخ إنسانيّة... تبدأ منه، إنْ لم تستمرّ الحضارات لتبقى علامة فارقة في صناعة التاريخ، على الرغم من بشاعة أصحابه في معظم الأحيـان.. إلّا أنّ المدينة كالرّب أو الأب الحكيم تُضفي قدسـيّة روحها على المكان دائمًا وأبدًا على ما يبدو...

(Endnotes)

1 - المواقع المدرجة في خطة ترامب وأهميتها الدينيّة أو الأثرية على حسب توضيح جمعية عمق متساوٍ:

- **جبل الهيكل / الحرم الشريف** - (المسجد الأقصى وقبة الصخرة) أقدس موقع في القدس لليهود والمسلمين. دولة إسرائيل والقانون اليهودي القائم يحظران على اليهود الصلاة في الحرم القدسي. حتى الآن، هو أهم موقع صلاة للمسلمين في البلاد، ورمز وطني وديني. أيّ تهديد محسوس لعلاقة المسلمين بالجبل يؤدي إلى الاضطرابات. من الصعب التكهن بالضبط كيف سيحدث التغيير للوضع الراهن في جبل الهيكل / الحرم الشريف في العالم الإسلاميّ.

-**حائط المبكى** - (حائط البراق) حائط المبكى هو في الواقع جزءُ من مجمع جبل الهيكل. بعد عام 1967، قررت إسرائيل السماح لليهود فقط بالصلاة في الموقع، ووُضِع الأساس للوضع الراهن غير المكتوب الذي يصلي فيه اليهود عند الحائط الغربي والمسلمون في جبل الهيكل / الحرم الشريف. خلال فترة الإنتداب البريطاني (1948 - 1920)، كان هذا مكان عبادة مختلط ما بين اليهود والمسلمين. أدّت الحوادث التي وقعت ما بين اليهود والمسلمين عند حائط المبكى عام 1929، إلى تظاهرات مرتبطة ببدء الصراع العنيف ما بين اليهود والفلسطينيين.

-**مواقع مسيحيّة تتراوح من كنيسة القديسة حنة إلى «بيت إبراهيم»** – مواقع خاضعة لسلطة الكنيسة، وبعضها يخضع مباشرة لسلطة بلدان مختلفة. لا يبدو أنّها مثيرة للجدل سياسيًا حاليًا، على الرغم من أنّ منظمات المستوطنين تمارس الضغط لتغيير الوضع الراهن في بعض هذه المواقع، مثل «غرفة العشاء الأخير» وغيرها. حتى الآن، تمكّنت هذه الدول بشكلٍ عام من الحفاظ على ممتلكاتها ووضعها.

-**جبل المشارف** – لم تعترف دولة إسرائيل إطلاقًا بقدسية جبل المشارف. أمّا المتعلّق بالمواقع الأخرى في القدس، فنادرًا ما يتمّ ذكر الموقع كجزء من التقاليد اليهوديّة أو المسيحيّة أو الإسلاميّة.

كنيس هورفا – كنيس بُنِيَ في نهاية القرن الثامن عشر ودمره الأردنيون بعد حرب 1948. لا يُعتبر موقعًا مقدسًا بخلاف وجوده كمكان عبادة يهودي.

-**قبر أبشالوم / طنطور فرعون** – هيكل ضخم يقع في وادي كدرون، شرق المدينة القديمة، ويرجع تاريخه إلى القرن الأول قبل الميلاد. تمّ التعرف على الموقع مع العديد من التقاليد اليهوديّة والمسيحيّة والإسلاميّة في ما يتعلق بمن دُفن داخل الموقع، بدءًا من أبشالوم بن الملك داود إلى إشعياء وزكريا وغيرهم.

-**قبر زكريا** – هيكل دفن من القرن الأول الميلاديّ يقع في جوار قبر أبشالوم. من المحتمل أنّه كان يستخدم لدفن الشرفاء خلال فترة الهيكل الثاني. الهيكل فارغ ولا يستخدم حاليًا للدفن.

- «**طريق الحجاج**» – موقع تنقيب أثري تحت منازل الفلسطينيين في حي سلوان. الحفريات تجري من قِبل سلطة الآثار، بتمويل من مؤسسة إلعاد ودولة إسرائيل. كشفت الحفريات عن طريق من القرن

الأول. الحفريات لا تزال جارية ولم يتم نشر أيّ تقارير علميّة. لا يزال تحديد الموقع غير واضح، وبالتالي فإنّ علامته التجاريّة بـ«مسار الحجاج» لم تُدعم بأيّ بحث تمّ الإعلان عنه. هذا بالتأكيد ليس موقع مقدّس.

-**قبور الأنبياء حجي وزكريا وملاخي** – موقع على جبل الزيتون. التقليد الذي يربط الموقع بمقابر حجي وزكريا وملاخي لم يؤيّده العلماء ولم يدعمه العديد من رجال الدين. إنّ تعريفه بالكامل إشكالي علميًا ويستند إلى تقاليد مسيحيّة نادرة جدًا يتبناها المستوطنون.

-**عين جيحون / عين أم الدرج / بركة سلوام** – موقع مقدّس يهوديّ ومسيحيّ وإسلاميّ يقع في حي سلوان. تقع مدينة داود / حي وادي حلوة على المنحدر الشرقي للموقع. أجريت الحفريات الأثريّة المدعومة من مؤسسة إلعاد في الموقع لمدة 25 عامًا. يُعتبر الموقع مقدسًا عند اليهود والمسيحيين والمسلمين منذ فترة الإنتداب البريطانيّ وما زالت إسرائيل مرتبطة به على هذا النحو. يظهر على قائمة إسرائيل الرسميّة للأماكن المقدسة.

– **جبل الزيتون** – مقبرة يهوديّة وموقع مسيحيّ مقدس. تعترف دولة إسرائيل بها كموقع مقدّس لليهود

– مقبرة سامبوسكي – ليست موقعًا مقدسًا. مقبرة في القدس أنشئت في القرن التاسع عشر على منحدر جبل صهيون مقابل ----- **وادي بن حنوم**. قامت سلطة الطبيعة والحدائق بتجديد الموقع في عام 2010. الموقع غير معروف جيدًا من قِبل الجمهور الإسرائيليّ ولا من قِبل رجال الدين اليهود.

– **بركة سلوام** – موقع مقدّس للمسيحيين. يقع عند سفح حي وادي حلوة في سلوان. قامت سلطة الآثار بالتنقيب في جزء منه في عام 2004، و أصبح بعد ذلك جزءًا من حديقة مدينة داوود الوطنيّة.

المرجع التفصيلي:

https://alt-arch.org/en/the-sanctification-of-antiquity-sites-in-the-peace-to-prosperity-plan